حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به - العدد الاول - شهر رمضان - ١٤٣٢هـ / آيار - ٢٠١١م

١

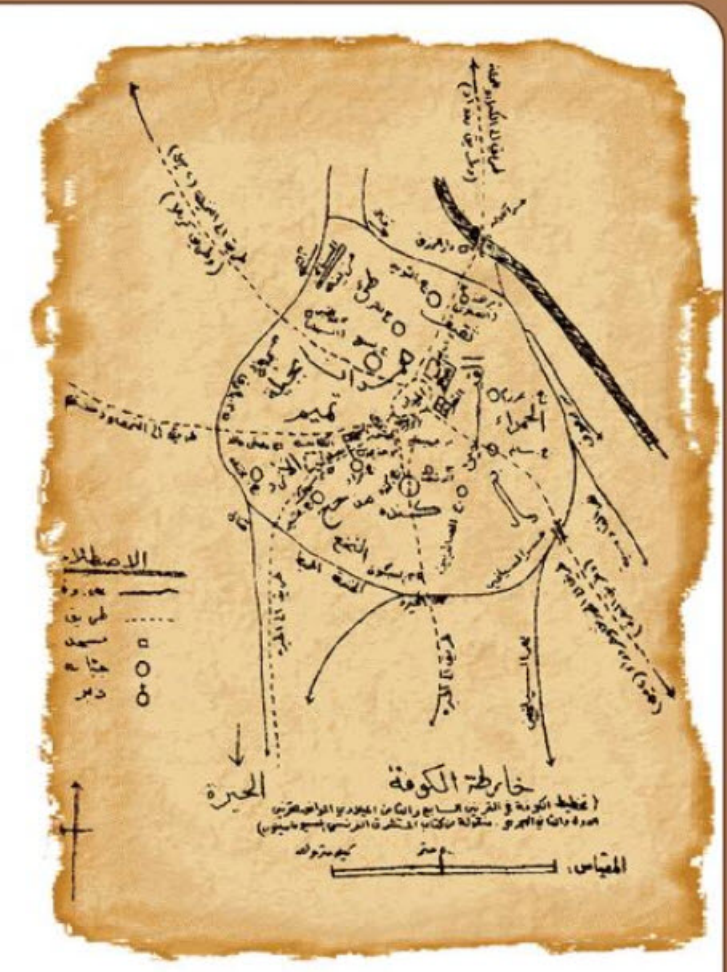

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

الحركة الفكرية في الكوفة في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور هادي حسين حمود

كلية الآداب- جامعة بغداد

ما كادت حركات التحرير والفتوح العربية الإسلامية أن تنتهي من تحرير العراق من السيطرة الفارسية الساسانية، حتى نشأت الأمصار الجديدة (البصرة والكوفة) وازدهرت فيها حياة المدن التي انطوت على علاقات اجتماعية جديدة، ونشاط اقتصادي مزدهر، وقيام حركة فكرية ذات جوانب متنوعة. فقد أحدث استقرار العرب في العراق تطوراً هاماً، ونقلة نوعية في حياتهم الفكرية والسياسية والاجتماعية. والحقيقة فإن الخليفة عمر بن الخطاب﵁ قد أدرك طبيعة التطورات التي سوف تطرأ على حياة العرب في الأمصار الجديدة، وما سوف يعقبها من تغيرات، الأمر الذي أدى به إلى أن يولي عناية خاصة لتلك الأمصار، كما أدرك في الوقت نفسه ما تحتاجه تلك المجتمعات من تنظيم اقتصادي وإداري، ومن ثقافة ومعرفة، ففيما يتعلق بالجانب الحضاري والعمراني أسست المدن الجديدة حسب شروط خاصة، كان منها: أن تكون ملائمة لسكنى العرب الوافدين حديثاً من جزيرة العرب أولاً، وإبقائهم أمة حربية مستعدة لدفع العدوان ثانياً. وحاول الخليفة عمر بن الخطاب أن يجعل تلك المدن عربية في تكوينها الاجتماعي وأدرك في الوقت نفسه أهمية النقاوة عند العرب فأبعدهم عن الأعاجم.

في سنة١٧هـ-بنيت مدينة الكوفة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب، فأصبحت دار هجرة للعرب الوافدين، فاختط سعد بن أبي وقاص المدينة، وأسكنها الناس.

اهتم الخليفة عمر بن الخطاب﵁ بالكوفة اهتماماً زائداً، ففي تلك المدينة (وجوه الناس) كما يقول الخليفة عمر[١]. وهؤلاء كما يقول (رمح الله وكنز الإيمان وجمجمة العرب يحمون ثغورهم ويمدون الأمصار)[٢].

لقد نزل تلك المدينة (ثلاثمائة من أصحاب الشجرة وسبعون من أهل بدر)[٣]، فتكون في ذلك المصر مجتمع كان لا بد من توجيه العناية والرعاية له. وتعهده بالعلم والمعرفة، لذلك أرسل الخليفة عمر إلى تلك المدينة مع الوالي (عمار بن ياسر) جماعة من الصحابة، كان منهم عبيد بن عازب وقرظة بن كعب الأنصاري[٤]، ويبدو أن المهمة التي أنيطت بأولئك القوم كانت تعليم الناس القرآن الكريم، والتفقه في الدين. ويروي قرظة بن كعب الأنصاري أنه لما خرج وجماعته من المدينة المنورة متوجهين إلى الكوفة ودعهم عمر بنفسه وقال لهم: (تدرون لم شيعتكم؟ فقلنا: نحن أصحاب الرسول ﷺ فقال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله....)[٥]. وعندما أرسل الخليفة عمر (عماراً بن ياسر) والياً على الكوفة، ومعه القارئ الصحابي (عبد الله بن مسعود) كتب إلى أهل الكوفة (أما بعد فإني بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً وابن مسعود معلماً ووزيراً، وقد جعلت ابن مسعود على بيت مالكم، وإنهما من النجباء من أصحاب محمد من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بابن أم عبد (عبد الله بن مسعود) على نفسي....)[٦]. وفي رواية أن الخليفة عمر أرسل (مجمع بن جارية) إلى الكوفة أيضاً لغرض تعليم الناس القرآن[٧] وهو من مشاهير من جمع القرآن في عهد الرسول ﷺ.

هذا وعلى الرغم من انشغال الإمام علي بن أبي طالب﵁ بمشاكله الداخلية، فقد أولى العلم والمعرفة والتفقه في الدين

(١) ابن سعد، محمد، الطبقات الكبرى، ج٦،(بيروت ١٩٥٧) ص٥.

(٢) أيضاً ٥/٦.

(٣) أيضاً ٩/٦.

(٤) أيضاً ١٧/٦.

(٥) أيضاً ٧/٦.

(٦) أيضاً ٢٥٥/٣.

(٧) ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣(القاهرة ١٣٢٨هـ)، ص٣٦٦.

عناية ورعاية كبيرة حين نزوله الكوفة، واتخاذها عاصمة للدولة العربية الإسلامية في عهده. وقد كانت للإمام علي آراء هامة في العلم والمعرفة، فطالما تحدث عن قيمة العلم، وأشاد بالعلماء ومن قوله لكميل بن زياد النخعي: (... الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم في سبيل نجاة.. وهمج رعاع.. يا كميل: العلم يحرسك. وأنت تحرس المال. والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق.. يا كميل محبة العلم دين يدان به، يكسب الإنسان الطاعة في حياته. وجميل الأحدوثة بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه.. يا كميل مات خزان العلم وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر...)[1]. ومن خطبة له بالكوفة يحث فيها أهلها أن يكونوا كبعض مشاهير العلماء قوله: (يا أهل الكوفة أتعجزون أن تكونوا مثل السلماني والهمداني...)[2]. وعن (علباء بن أحمر) أن علياً خاطب أهل الكوفة فقال: (من يشتري علماً بدرهم؟ فاشترى الحارث الأعور [أحد أهل الكوفة] صحفاً بدرهم، ثم جاء بها علياً فكتب له علماً كثيراً. ثم إن علياً خطب الناس بعد ذلك فقال: يا أهل الكوفة غلبكم نصف رجل...)[3].

وقد حرص رحمه الله على أن لا يدع شيئاً عنده من العلم إلا علمه لأصحابه من القراء، فقد قال يوماً: (اجمعوا لي القراء، فاجتمعوا في رحبة المسجد، فقال لهم: إني أوشك أن أفارقكم ثم جعل يسألهم ويقول لهم: ما تقولون في كذا؟ ويقولون له: يا أمير المؤمنين ما كذا وكذا؟ فيخبرهم حتى ارتفع النهار وتصدعوا ونفد ما عندهم...)[4]. وكان للإمام علي تلاميذه في الكوفة سنتحدث عنهم فيما بعد.

دور الكوفة في تثبيت التقاليد العلمية العربية الإسلامية:

في العهود الإسلامية الأولى وضعت التقاليد العربية الإسلامية، التي كان لها دورها الهام في تطور العلوم والمعارف والتي أصبحت، فيما بعد، من مستلزمات الثقافة العربية الإسلامية، ويعود لعلماء العراق، ومنهم أهل الكوفة، الفضل في تثبيت العلم بواسطة التدوين بعد أن كان يجري شفاهاً على ألسنة الناس، كما إن لأولئك العلماء الدور المميز في إنشاء الحلقات العلمية التدريسية في المساجد، وكذلك دورهم في تثبيت التقليد الإسلامي المعروف بـ(الرحلة في طلب العلم). أما التدوين فكان لابد منه لتثبيت العلوم والمعارف، وذلك بتدوين تلك العلوم وحفظها من الضياع، بعد أن تطور المجتمع العربي واستقر العرب في الأمصار. ومن ثم ازدهرت الحركة العلمية فيها.

لقد أحجم العرب في البداية عن تدوين الحديث النبوي لما قد يختلط منه بالقرآن الكريم، واختلف العلماء في التدوين، وروت أحاديث عن الرسول ﷺ أشارت على عدم إباحة التدوين، إلا أن كثرة العلوم والمعارف قد جعلت من التدوين مسألة حضارية لابد منها. فقد دون الناس بعضاً من الأحاديث النبوية في عهد الرسول ﷺ. فقد كان لعبد الله بن مسعود، رأس مدرسة الكوفة، مسند[5]. ويبدو أنه كتبه بيده[6]، وكان لتلميذه الشهير عبيدة السلماني كتب محاها قبل موته وقال: (... أخشى أن يليها أحد بعدي فيضعها في غير موضعها)[7]. وكان عامر الشعبي (ت١٠٤هـ) من أشهر الداعين في الكوفة إلى تدوين العلم خوفاً عليه من الضياع، وقد قال لأحدهم يوماً: (لا تدعن شيئاً من العلم إلا كتبته، فهو خير لك من موضعه في الصحيفة، وإنك تحتاج إليه يوماً)[8]. وكان (سعيد بن جبير) قارئ الكوفة وفقيهها الشهير يكتب العلم عن (عبد الله بن عباس) وكان يمليه على تلاميذه الذين كانوا يحضرون إليه ومعهم أدوات الكتابة[9].

وقد أسهم الكوفيون في الرحلات العلمية في طلب العلم منذ العهود المبكرة الأولى يقول (زر بن جيش) قارئ الكوفة: (وفدت في خلافة عثمان بن عفان وإنما حملني على الوفادة لقيا أبي بن كعب وأصحاب رسول الله...)[10]. ويذكر الشعبي أنه لم يكن أحد من أصحاب عبد الله (ابن مسعود) أطلب للعلم في أفق في الآفاق من مسروق)[11] تلميذ عبد الله بن مسعود.

وكان لأهل الكوفة دورهم في قيام الحركة الفكرية الأولى، فقد اشتهر من علمائهم أبو إسحاق السبيعي وسليمان بن مهران الأعمش[12]. يقول محمد بن سيرين (ت١١٠هـ) قارئ البصرة: (قدمت الكوفة وعلماؤها خمسة: عبيدة وعلقمة ومسروق وشريح والحارث الأعور)[13].

(١) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، العقد الفريد، ج٢، تحقيق أحمد أمين وجماعته (القاهرة ١٩٦٩) ص٢١٢.
(٢) ابن سعد٦/٩٣.
(٣) أيضاً ٦/١٦٨.
(٤) ابن بدران، عبد القادر بن أحمد، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، ج٦(بيروت ١٩٧٩) ص٣٠٨.
(٥) ابن حجر الإصابة ١/١٧٨.
(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، ج١ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان (المدينة المنورة ١٩٦٢) ص٨٦.
(٧) ابن سعد ٦/٩٤.
(٨) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تقييد العلم، تحقيق يوسف العش ط٢/١٩٧٤، ص١٠٠.
(٩) ابن سعد ٦/٢٦٦.
(١٠) الخطيب البغدادي، الرحلة في طلب الحديث، تحقيق نور الدين عتر،(بيروت ١٩٧٥) ص٩٢.
(١١) الرامهر مزي، الحسن بن عبد الرحمن، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، تحقيق محمد عجاج الخطيب (بيروت ١٩٧١) ص٢٢٨.
(١٢) أيضاً ص٦١٤-٦١٥.
(١٣) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، ج٦، تحقيق عبد العزيزي مصطفى المراغي (القاهرة ١٩٤٧) ص٢٢٨.

نشوء مدرسة الكوفة الإقرائية التعليمية وتطورها:

نزل عبد الله بن مسعود بالكوفة بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وبذلك تكونت مدرسة الكوفة الإقرائية التعليمية التي استمرت تأثيراتها الفكرية إلى أمد بعيد، وكانت تلك المدرسة (قائمة على الرواية والتلقين)[١].

كان عبد الله بن مسعود صحابياً قديماً أسلم قبل الهجرة، واشترك في معارك الإسلام الأولى، وكان شديد الصلة بالرسول ﷺ وقد مدح الرسول قراءة ابن مسعود للقرآن الكريم ووصفه بأنه (... عليم معلم)[٢]. كما كانت لابن مسعود مكانة جليلة عند الخليفة عمر بن الخطاب، وقد وصف الإمام علي بن أبي طالب ابن مسعود بأنه (علم القرآن وعلم السنة ثم انتهى وكفى به علماً)[٣].

نزل ابن مسعود بالكوفة فكان يخطب كل خميس، ويدع خطبة الجمعة للأمير وهو عمار ابن ياسر[٤]. ويبدو أن خطب ابن مسعود كانت إرشاداً ووعظ فيذكر أبو وائل القارئ (كان عبد الله يذكر الناس كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن لوددت أنك ذكرتنا كل يوم)[٥].

كان ابن مسعود يجمع بين القراءة والفتيا، ويذكر مسروق بن الأجدع تلميذ عبد الله أن ابن مسعود كان يقرئ الناس القرآن في المسجد (ثم يجلس بعد ذلك يفتي الناس)[٦]، وكان (إذا اجتمع إخوانه نشروا المصحف فقرؤوا وفسر لهم)[٧].

أما طريقته في التدريس والرواية فكان (يتحرى في الأداء ويشدد في الرواية، ويزجر تلاميذه عن التهاون في ضبط الألفاظ)، كما كان (يقل من الرواية للحديث ويتورع في الألفاظ)[٨]. وكان تلاميذه لا يفضلون عليه أحداً من الصحابة)[٩].

كان الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ واثقاً مما كان يقوم به عبد الله في الكوفة، فيروي علقمة بن قيس تلميذ ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى عمر فقال (جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة وتركت فيها رجلاً يملي المصاحف عن ظهر قلبه) فغضب عمر غضباً شديداً ولكنه لما علم أن ذلك الرجل كان ابن مسعود مدحه ورضي عن عمله وقال (والله ما أعلم بقي من الناس أحد أحق بذلك منه)[١٠].

كوّن ابن مسعود في الكوفة مدرسة إقرائية تعليمية فقهية، كان لها طلاب حفظوا أصولها، وراعوا برامجها. يقول علي بن المديني، أحد مؤرخي الفقه المشهورين: (... لم يكن أحد من أصحاب رسول الله له أصحاب يقولون بقوله في الفقه إلا ثلاثة: عبد الله بن مسعود وزيد[بن ثابت] وعبد الله بن عباس، فإنهم كان لكل واحد منهم أصحاب يقولون بقوله ويفتون الناس، فكان أصحاب عبد الله الذين يقرؤون ويفتون بقوله ويذهبون مذهبه: علقمة والأسود ومسروقاً وعبيدة السلماني وعمر بن شرحبيل والحارث بن قيس ستة هكذا عدهم إبراهيم النخعي[القارئ والفقيه الكوفي]. وكان أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله ومذهبه إبراهيم والشعبي)[١١]. والحق أن أولئك الستة كانوا عماد مدرسة عبد الله بن مسعود، وهم (الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم....)[١٢]. ويقول محمد بن سيرين فقيه البصرة: (أدركت الناس بالكوفة وهم يقدمون خمسة، من بدأ بالحارث ثنى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث ثم علقمة لا شك فيه...)[١٣]. وكان علقمة والأسود وعبيدة والحارث (أعلم الناس بعبد الله...)[١٤]. وقد ألقى عامر الشعبي[الفقيه والقارئ الكوفي] مزيداً من الأضواء على تلاميذ عبد الله ومدى معرفتهم به، وعلاقتهم بالعلوم السائدة آنذاك فقال: (كان علقمة أبطن القوم به[أي أخبرهم وأطولهم عشرة له]. وكان مسروق قد خلط منه ومن غيره، وكان الربيع بن خيثم أشد القوم اجتهاداً، وكان عبيدة يوازي شريحاً في العلم والقضاء)[١٥].

هذا وقد ضمت مدرسة الكوفة زمن ابن مسعود علماء وقراء آخرين غير أولئك الستة. وأشارت المصادر الإقرائية إلى بعض أولئك القراء الذين عدتهم من الطبقة الأولى كانوا بعيدين، زمنياً، عن عصر ابن مسعود، ولكن الظاهر أنهم كانوا على صلة بتلاميذه، منهم سعيد ابن جبير وإبراهيم النخعي

(١) المخرومي، مهدي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو (القاهرة ١٩٥٨) ص٢٦.
(٢) ابن العماد، عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج١(بيروت، بدون تاريخ) ص٤٠.
(٣) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج، صفة الصفوة، ج١، تحقيق محمود فاخوري (حلب ١٩٦٩) ص٤٠١.
(٤) البلاذري، أحمد بن يحيى، أنساب الأشرف، ج١، تحقيق محمد حميد الله (القاهرة ١٩٥٩) ص١٦٤.
(٥) البخاري، محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح، ج١(القاهرة ١٢٧٩) ص٣٧.
(٦) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج٢(القاهرة ١٩٣٣) ص٢٩٤.
(٧) أيضاً ٤٥٩/١.
(٨) الذهبي، أحمد بن علي، تذكرة الحفاظ، ج١(بيروت، بدون تاريخ) ص١٤.
(٩) أيضاً ١٤/١.
(١٠) ابن الجوزي، صفة الصفوة ٣٩٨/١.
(١١) ابن بدران ٤٥٤/٥.
(١٢) ابن حجر، أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، ج٧، (حيدر آباد ١٣٢٥) ص٢٧٧.
(١٣) أيضاً ٢٧٧/٧.
(١٤) أيضاً ٢٧٧/٧.
(١٥) السيوطي، عبد الرحمن، طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر (القاهرة ١٩٧٣) ص١٣.

وعامر الشعبي. وممن عدوا من جماعة ابن مسعود، أو من معاصريه، ومن الطبقة الأولى من قراء الكوفة وعلمائها (الربيع بن خيثم) و(أبو وائل شقيق بن سلمة) و(زر بن حبيش) و(عبيد بن نضلة).

هذا وقد حصل تطور كبير على مدرسة الكوفة بعد حلول (أبو عبد الرحمن السلمي ت ٧٣هـ) فيها وإقرائه الناس بالقراءة التي أمر بها الخليفة عثمان بن عفان.

روى أبو عبد الرحمن السلمي عن عثمان وعلي وابن مسعود وإليه (انتهت القراءة تجويداً وضبطاً)[١] وهو (مقرئ الكوفة بلا مدافعة)[٢]. وكان السلمي قد أقرأ الناس القرآن الكريم منذ أن مارس القراءة زمن الخليفة عثمان حتى وفاته سنة٧٣هـ (يعلم القرآن ويقرئه معجلالة قدره وكثرة علمه وحاجة الناس إليه...)[٣]. وكان إمام مسجد الكوفة (يحمل الطين في اليوم المطير...)[٤].

جاءت شهرة السلمي بسبب كونه (... أول من أقرأ بالكوفة القراءة التي جمع عثمان... الناس عليها...)[٥]. ويبدو أن قراءة السلمي كانت مصحوبة بالتدبر والتفسير والعمل فكان (.... يقرئ عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي ويخبرهم[أي الذين يستمعون إليه] بمواضع العشر والخمس ويقرئ الناس خمس آيات خمس آيات...)[٦]. وكان يقول: (أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشرة الأخرى حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به)[٧].

هذا وقد ضمت مدرسة الكوفة قراء آخرين، منهم (يزيد بن عميرة السكسكي) تلميذ معاذ ابن جبل، و(أويس القرني) زاهد الكوفة المعروف. وعلى كل حال فأصحاب عبد الله بن مسعود كانوا حقاً (سرج هذه القرية) أي الكوفة، برأي الإمام علي بن أبي طالب[٨].

حلت بالكوفة بعد الطبقة الأولى من القراء طبقة ثانية، كانت كما يظهر، أكثر نضوجاً في علم القراءات، وتتكون تلك الطبقة من (يحيى بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، والأعمش، والزيات، والكسائي) ولا مجال للتوسع في الحديث عن مساهماتهم الإقرائية هنا. ومع ذلك فلابد من توضيح التطورات التي حدثت على القراءة في الكوفة منذ أيام ابن مسعود وحتى نهاية فترة قراء الطبقة الثانية.

يذكر ابن مجاهد، عالم القراءات المشهور، أن قراءة ابن مسعود كانت هي الغالبة على المتقدمين من أهل الكوفة، لأن الخليفة عمر بن الخطاب قد أرسله إليهم ليعلمهم، وقد قرأ بقراءة ابن مسعود تلاميذه من بعده، ولم يزل الأمر كذلك، حتى جمع الخليفة عثمان الناس على قراءة واحدة، فقام بها في الكوفة (أبو عبد الرحمن السلمي) الذي أقرأ الناس زمناً طويلاً. وكان من تلاميذ السلمي القارئ الكوفي (عاصم بن أبي النجود) الذي كان يقرئ الناس بقراءة أستاذه (وإلى عاصم صار بعض أهل الكوفة وليس بالغالبية عليهم، لأن أضبط من أخذ عن عاصم أبو بكر بن عياش فيما يقال) وكان أهل الكوفة لا يأتمون قراءة عاصم بأحد ممن يثبتونه في القراءة عليه، إلا بأبي بكر بن عياش، وكان لا يكاد يمكن من نفسه من أرادها، فقلت بالكوفة من أجل ذلك، وعز من يحسنها، وصار الغالب على أهل الكوفة قراءة حمزة بن حبيب الزيات)[٩]. والظاهر أن قراءة ابن مسعود استمرت بالكوفة ولكن بنطاق ضيق. وكان أشهر من قرأ بها (الأعمش) الذي كان من جملة من قرأ عليه الزيات[١٠] ويوضح ذلك ابن مجاهد فيقول: (وكان حمزة ممن تجرد للقراءة ونصب نفسه لها، وكان ينحو أصحاب عبد الله، لأن قراءة عبد الله انتهت بالكوفة إلى الأعمش)[١١].

هذا ما أردت إيضاحه مختصراً عن مدرسة الكوفة، وقد فصلت الحديث عنه كتب القراءات وما جاءت به الدراسات النحوية والإقرائية قديماً وحديثاً.

الكوفيون والتفسير:

تناول العرب المسلمون القرآن الكريم بالدراسة والتفسير. وكان قراء القرآن الكريم من أوائل الذين اهتموا بتفسيره. وكان من أوائل الذين عرفوا بالتفسير بالكوفة مؤسس المدرسة (عبد الله بن مسعود). الذي كان منهجه يقوم على تلاوة القرآن ومن ثم تفسيره، فكان إذا اجتمع إخوانه نشروا المصحف فقرؤوا وفسر لهم)[١٢]. وقد عرف ابن مسعود ما نسخ من القرآن وما بدل كما يقول ابن عباس[١٣]. وكان فخوراً بذلك فكان يقول

(١) ابن الجزري، غاية النهاية ٤١٣/١.
(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٣(القاهرة ١٣٦٧هـ)، ص٢٢٢.
(٣) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، ج١، تحقيق علي محمد الضباع (القاهرة، بدون تاريخ) ص٣.
(٤) ابن سعد ١٧٢/٦.
(٥) ابن مجاهد، أحمد بن محمد، السبعة في القراءات، تحقيق شوقي ضيف، (القاهرة ١٩٧٢) ص٦٧.
(٦) ابن سعد ١٧٢/٦.
(٧) ابن الجزري، غاية النهاية ٤١٣/١.
(٨) ابن سعد ١٠/٦.
(٩) السبعة في القراءات، ص٧١.
(١٠) أيضاً ص٧٤.
(١١) أيضاً ص٧٢.
(١٢) ابن الجزري، غاية ٤٥٩/١.
(١٣) أيضاً ٣٤٢/٢.

لأصحابه، (ما نزلت سورة إلا وأنا أعلم فيما نزلت، ولو أعلم أن أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل والمطايا لأتيته)[١].

وفي رواية شقيق بن سلمة تلميذه قال: (خطبنا عبد الله فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ نيفاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي أني أعلم بكتاب الله. قال شقيق فجست في الخلق أسمع ما يقولون فما سمعت رداً يقول غير ذلك)[٢].

هذا وقد حفلت مدرسة الكوفة بمجموعة طيبة من المفسرين، كان منهم محمد بن كعب القرظي الذي قال فيه عون بن عبد: (ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظي)[٣]. وكان (زر بن حبيش) يفسر بعض الآيات عن ابن مسعود[٤]. وممن اشتهر بالتفسير بالكوفة أبو عبد الرحمن السلمي الذي كان (يقرئ عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي ويخبرهم بموضع العشر والخمس....)[٥]. ولم يكن أحداً أعلم بالقرآن من أبي العالية الرياحي[٦]، ومن مشاهير المفسرين بالكوفة (سعيد بن جبير) الذي أخذ كثيراً من علمه بالتفسير من ابن عباس[٧]. فكان أعلم التابعين بتفسير القرآن[٨]. وله كتاب فيه[٩]. وعن ورقاء بن إياس قال: (رأيت عزرة يختلف إلى سعيد بن جبير معه التفسير ومعه الدواة لعلها: يقيد...)[١٠].

ومن مفسري الكوفة أبو صالح (صاحب التفسير الذي رواه عن ابن عباس ورواه عن صالح الكلبي محمد بن السائب)[١١]. ويشير ابن النديم إلى أن أبا حمزة الثمالي كان له كتاب في التفسير (وهو من أصحاب علي من النجباء الثقاة....)[١٢]. وكان عامر الشعبي من العارفين بالتفسير، إلا أنه كان حذراً من الخوض فيه فكان يقول: (والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله عز وجل)[١٣]. وكان الشعبي ضد فكرة التفسير بالرأي وكان يقول: (إن الذي يفسر القرآن برأيه إنما يرويه عن ربه..)[١٤]. وكان لداود بن أبي هند كتاب في التفسير[١٥].

الكوفيون ورواية الحديث النبوي:

يمثل الحديث النبوي الشريف الركن الثاني من أركان الفقه الإسلامي، فهو، في أحيان كثيرة بمثل تفسيراً أو إيضاحاً لمعاني القرآن الكريم، أو يمثل جانباً تشريعياً أو إرشاداً ووعظاً، لذلك اهتم به المسلمون وأولوه الرعاية والعناية والحفظ

كان عبد الله بن مسعود (قد علم القرآن وعلم السنة..) كما يقول الإمام علي[١٦]، وكان تلاميذه، كما يقول إبراهيم النخعي الفقيه الكوفي (... يعملون السنة.)[١٧] بالكوفة. وعلى رأسهم علقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع وعبيدة السلماني وغيرهم. وكان (زر بن جيش) (كثير الحديث)[١٨]. وكان محمد بن سعد بن أبي وقاص قد سكن الكوفة (وكان ثقة وله أحاديث)[١٩]. أما الأسود بن يزيد بن قيس، تلميذ ابن مسعود فقد كان ثقة وله أحاديث صالحة، وكان عامر الشعبي بالكوفة (أول من فتش عن الإسناد) في الحديث النبوي[٢٠]. كما كان الحارث الأعور الهمداني يروي عن علي بن أبي طالب عن النبي[٢١]. وكان أبو رافع مولى رسول الله ﷺ وكاتب الإمام علي (.. أول من جمع الحديث ورتبه بالأبواب...)[٢٢].

أما شقيق بن سلمة فكان كثير الحديث[٢٣]. أما الحكم بن عتيبة فكان (ثقة فقيهاً عالماً عالياً رفيعاً كثير الحديث)[٢٤] كما كان عبد الله بن شداد كثير الحديث أيضاً[٢٥]. وكان أبو النجدي الطائي (كثير الحديث يرسل حديثه ويروي عن أصحاب رسول الله...)[٢٦]. أما سليمان بن مهران الأعمش فكان يروي أربعة آلاف حديث[٢٧]. وقد أعجب لكثرة حديثه ابن شهاب الزهري عالم الشام الشهير فكان يقول: (والله إن هذا لعلم وما كنت أرى أن بالعراق أحداً يعلم هذا)[٢٨]. (كان ثقة ثبتاً بالحديث وكان محدث

(١) ابن سعد ٣٤٢/٢.
(٢) البخاري، الجامع الصحيح ٣٠١/٧-٣٠٢.
(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٢١/٩.
(٤) مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، ج١، (القاهرة ١٣٨٣هـ) ص١٠٩.
(٥) ابن سعد ١٧٢/٦.
(٦) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص٢٢.
(٧) ابن سعد ٢٥٧/٦.
(٨) البسوي، يعقوب بن إسماعيل، المعرفة والتاريخ، ج٢، تحقيق أكرم ضياء العمري (بغداد ١٩٧٦) ص١٦.
(٩) ابن النديم، الفهرست،(القاهرة، بدون تاريخ) ص٥٧.
(١٠) ابن سعد ٢٦٦/٦.
(١١) البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، (القاهرة ١٩٥٦) ص٣٢٩.
(١٢) الفهرست ص٥٦.
(١٣) البسوي ٦٠٣/٢.
(١٤) أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٤،(القاهرة ١٩٣٥) ص٣٢١.
(١٥) ابن النديم، ص٥٧.
(١٦) ابن الجوزي، صفة الصفوة ١٠٤/١.
(١٧) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص١٤.
(١٨) أيضاً ص١٩.
(١٩) ابن سعد ٢٢/٦.
(٢٠) الرامهر مزي، المحدث الفاضل. ص٢٠٨.
(٢١) ابن قتيبة، محمد بن مسلم، عيون الأخبار، ج٢(القاهرة ١٩٦٣) ص١٣٣.
(٢٢) القمي، عباس، الكنى والألقاب، ج١،(النجف ١٩٥٦) ص٧٦.
(٢٣) ابن سعد ١٠٢/٦.
(٢٤) أيضاً ٣٣٢/٦.
(٢٥) أيضاً ١٤٥/٦.
(٢٦) أيضاً ٢٩٣/٦.
(٢٧) أيضاً ٣٤٣/٦.
(٢٨) ابن عبد البر، ٣٤/٢.

أهل الكوفة في زمانه)[1].

والظاهر أن الكوفة قد ازدحمت بطلاب الحديث، فقد أشار ابن سيرين إلى أنه حين قدم الكوفة من البصرة وجد فيها (أربعة آلاف يطلبون الحديث...)[2].

مدرسة الكوفة الفقهية:

في العهود الإسلامية الأولى نشأ الفقه الإسلامي وتطور، والظاهر أن ذلك قد تم بعد عصر الرسول ﷺ على أيدي القسم المثقف من الصحابة الذين عرفوا بـ(القراء). كما يرى ذلك ابن خلدون، ويشير ابن خلدون كذلك إلى أن اسم (القراء) قد تبدل بعد ذلك إلى ما سمي بـ(الفقهاء والعلماء) و(انقسم الفقه إلى طريقتين: طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز)[3].

والحق أن إطلاق لفظة أو مصطلح (أهل القياس والرأي) على أهل العراق فيه شيء من عدم الدقة، ذلك أن مدرسة الكوفة التي وصفت بهذه الصفة لم يكن فقهاؤها جميعاً قد اتصفوا بهذه الصفة، كما سنرى، فكيف بأهل العراق جميعاً؟.

لقد أورد القدماء والمحدثون من الدراسين ومؤرخي الحضارة والفكر أسباباً كثيرة لقيام مدرسة الرأي والقياس في العرق ومن تلك الأسباب: قلة الحديث النبوي الشريف في العراق، إضافة على ماضيه الحضاري القديم، وأعرافه وتقاليده وحياته الاجتماعية التي تختلف عن الحجاز، وكذلك تطور الحياة الفكرية فيه بتأثير الحضارات القديمة[4].

إن الحديث عن قيام المدارس الفقهية مسألة قد درست كثيراً، ولا مجال للحديث عن ذلك الآن، وكل ما يهم كانت هذه السطور هنا لتبيان التطورات التي حدثت على مدرسة الكوفة الفقهية.

يبدو أن الرواد الأوائل لمدرسة الكوفة، ومنذ البداية، كانوا أصحاب فتيا ورأي، ذلك أن كلا الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما كانا من أصحاب الرأي والفتنا والقضاء والاجتهاد، وكان لهما تأثيرهما على مدرسة الكوفة. وكان (عبد اله بن مسعود) وتلاميذه، وهم المؤسسون لمدرسة الكوفة، أصحاب رأي وفتياً أيضاً، كما أشار إلى ذلك علي بن المديني الذي أشرت إلى رأيه سابقاً.

كان عبد الله بن مسعود من القائلين بالرأي[5]. وكان أصحابه أمثال علقمة بن قيس ومسروق بن الأجدع وعبيدة السلماني وغيرهم يفتون الناس بالكوفة[6]. ويفصل علي بن المديني الحديث عن أصحاب عبد الله وطبيعة نظرتهم إلى مسائل الفقه، فيذكر أن (أعلم أهل الكوفة بأصحاب عبد الله ومذهبه إبراهيم [النخعي] والشعبي، إلا أن الشعبي كان يذهب مذهب مسروق، يأخذ عن علي وعن أهل المدينة، وكان أبو إسحاق [السبيعي] وسليمان الأعمش أعلم أهل الكوفة بمذهب عبد الله وطريقه بعد هذين. وكان سفيان الثوري أعلم الناس بحديثهم وطريقهم بعد هذين...)[7]. وقد ألقى عامر الشعبي فقيه الكوفة المعروف ضوءاً آخراً على طبيعة مدرسة الكوفة. فقال بعد أن ذكر مشاهير أصحاب عبد الله: (وكان مسروق أعلم بالفتوى من شريح، وشريح أعلم بالقضاء، وكان عبيدة يوازيه....)[8]. وفي حديث آخر للشعبي أن مسروقاً قد (خلط منه ومن غيره[أي من ابن مسعود وغيره] وكان الربيع بن خيثم أشد القوم اجتهاداً...)[9]. وذكر محمد بن سيرين فقيه البصرة أصحاب عبد الله فقال: (أدركت الناس بالكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث ثنى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث ثم علقمة الثالث لا شك فيه)[10]. وهؤلاء (يقرئون الناس ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم)[11].

إن أصحاب عبد الله كما يقول ابن عبد البر: (ممن حفظ عنه أنه قال وأفتى مجتهداً برأيه وقايساً على الأصول فيما لم يجد فيه نصاً)[12].

هكذا بدأت في الكوفة، ومنذ عهد مبكر، مسائل القياس والاجتهاد، وكان لأصحاب ابن مسعود الفضل في تبلور ذلك الاتجاه.

كان إبراهيم النخعي تلميذ علقمة بن قيس، من أصحاب الرأي والقياس، فكان يقول: (ما كل شيء نسأل عنه نحفظه ولكننا نعرف الشيء بالشيء ونقيس الشيء بالشيء)[13]. ويقول أيضاً: (إني لأسمع الحديث فأقيس عليه مائة شيء)[14]. وقد عرف عنه بأنه (صاحب قياس)[15].

وفي الوقت الذي ازدهرت فيه دراسات الفقه في الكوفة، واتخذ القياس. إضافة إلى القرآن الكريم والسنة، ذلك الجانب

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٢٣/٤.
(٢) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص٢٠.
(٣) ابن خلدون، المقدمة،(بدون تاريخ)، ص٤٤٦.
(٤) انظر مثلاً: ابن خلدون، المقدمة ص٤٤٤-٤٤٧، أحمد أمين، فجر الإسلام (بيروت ١٩٦٩) ص٢٤١-٢٤٢.
(٥) عبد الله، هاشم جميل، فقه الإمام سعيد بن المسيب، ج١،(بغداد ١٩٧٤) ص١٢٥.
(٦) ابن سعد ١٠/٦، ابن بدران ٤٥٢/٥.
(٧) ابن بدران ٤٥٢/٥.
(٨) السيوطي، طبقات الحفاظ، ص١٣.
(٩) أيضاً ص١٣.
(١٠) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٧٧/٧.
(١١) أيضاً ٢٧٧/٧.
(١٢) جامع بيان العلم ٦١/٢.
(١٣) أيضاً ٦٦/٢.
(١٤) أيضاً ٦٦/٢.
(١٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٣٠٣/٤.

الواضح في الحياة الفقهية في تلك المدينة. كان تيار الالتزام بالقرآن الكريم والسنة الشريفة، وعدم العدول عنهما لا يزال يؤثر في تلك المدينة أيضاً. وكان عامر الشعبي الذي عرف بالكوفة بكونه (صاحب آثار) زعيم ذلك التيار بلا منازع.

كان الشعبي، كأهل المدينة، يعتمد في مسائل الفقه على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وكان يرى فيهما مصادر كافية ووافية لما يجب أن يقوم عليه الفقه الإسلامي. وفي حديث مع أبي الزناد، عبد الله بن ذكوان قال: (يا ابن ذكوان إن جئت بها زيوفاً وتذهب بها جياداً. وربما قال: وترجع بها طياباً يعني فتيا أهل المدينة)[١]. وكان الشعبي يحذر الناس من القياس ويقول: (إياكم والقياس، وإنكم إن أخذتم به أحللتم الحرام وحرمتم الحلال. ولأن أتغنى أغنية أحب إلي من أن أقول في شيء برأيي)[٢]. وكان يقول أيضاً: (... اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة)[٣]. وقد استهدف الشعبي رجال القياس والرأي بالكوفة أمثال إبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وحماد بن أبي سليمان وهاجمهم بعنف.

ولكن يبدو أن تيار الرأي والقياس قد قوي في الكوفة. ممثلاً بالدرجة الأولى بشخصية إبراهيم النخعي الذي روى عن علقمة ومسروق. ودخل على السيدة عائشة. زوج الرسول ﷺ، وأخذ عنها. وقد وصفه الذهبي بقوله: (وكان صيرفياً في الحديث)[٤]. ومن هنا يتضح أن الرجل لم يعتمد في فقهه على القياس والرأي وإنما اعتمد على الحديث أيضاً.

توفي إبراهيم النخعي في سنة ٩٦هـ فخلفه حماد بن أبي سليمان، ففي رواية ابن سعد عن رواته عن مغيرة بن مقسم قال: (قلت لإبراهيم: من نسأل بعدك قال: حماداً)[٥]. وفي رواية مغيرة بن مقسم أيضاً أنه لما مات إبراهيم (رأينا الذي يخلفه الأعمش، فأتيناه فسألناه عن الحلال والحرام فإذا لا شيء، فسألنا عن الفرائض فإذا هي عنده. قال فأتينا حماداً فسألنا عن الفرائض فإذا لا شيء فسألناه عن الحلال والحرام فإذا هو صاحبه. قال: فأخذنا الفرائض عن الأعمش وأخذنا الحلال والحرام عن حماد عن إبراهيم)[٦]. وكان حماد (إذا قال برأيه أصاب وإذا قال عن غير إبراهيم أخطأ)[٧].

والظاهر أن حماد بن أبي سليمان لم يكن التلميذ الوحيد لإبراهيم النخعي، فكان من تلاميذه أيضاً الحكم بن عتيبة الذي يقول فيه الإمام أحمد بن حنبل: (الحكم أثبت الناس في إبراهيم)[٨]. كان ثقة ثبتاً فقهياً صاحب (سنة وأتباع)[٩].

هذا ويصور لنا أبو بكر بن عياش، أحد أعلام مدرسة الكوفة الفقهية، والتي تبلورت فيها مسائل القياس والرأي فيذكر أنه كان بالكوفة (ثلاثة ليس لهم رابع: حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتيبة وحماد بن أبي سليمان، وكان هؤلاء الثلاثة أصحاب الفتيا وهم المشهورون)[١٠]. وحماد بن أبي سليمان هو الذي كان يجادل الشعبي، والذي كان يغلبه في مجادلاته، ويروي أبو بكر بن عياش عن مغيرة بن مقسم (ما رأيت العشبي وحماداً تماريا في شيء إلا غلبه حماد...) إلا في مسألة واحدة[١١].

هؤلاء الفقهاء هم (الآرائيون) الذين ضاق الشعبي بهم ذرعاً، والذين يغضوا إليه الجلوس والحديث في مسجد الكوفة[١٢]. وهم أصحاب الرأي. وحماد بن أبي سليمان (فقيه الكوفة بعد النخعي القائم بفتواها وهو معلم أبي حنيفة)[١٣].

والحق أن الحديث عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت (ت ١٥٠هـ) حديث طويل، فهو فقيه أهل الكوفة وصاحب مدرستها المعروفة باسمه. وقد تناولته الدراسات الفقهية قديماً وحديثاً، وهو أشهر من أن نتحدث عنه بهذه العجالة.

الكوفيون ودراسات الأدب العربي:

أسهم الكوفيون في مجالات الدراسة الأدبية والنحوية، وكان لهم دورهم في تدوين الأدب العربي.

تحدث مؤرخو الأدب قديماً وحديثاً عن أسباب تدوين وقيام الحركة الأدبية في الكوفة، وكذلك في البصرة، وبينوا أسباباً كثيرة لنشوء تلك الدراسات. وكان من أهم أسباب تلك المفاخرات بين القبائل، كما كان للقراءات القرآنية دورها الهام في تثبيت وإدراك طبيعة العلاقة بين القراءة الصحيحة وبين ما له علاقة بالنحو العربي ورسم المصحف وما إلى ذلك، فالقراء مثلاً كانوا شديدي الحرص على (أداء نصوص الذكر الحكيم أداء فصيحاً إلى أبعد حدود الفصاحة...)[١٤]. وهذا الأمر أدى إلى (.. عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها)[١٥]. وفي الحلقات القرآنية (زرعت بذور المدرس اللغوي، لأن

(١) البسوي ٥٩٤/٢.
(٢) ابن عبد البر ٩٤/٢.
(٣) ابن بدران ١٤٠/٧.
(٤) الذهبي، تذكرة الحفاظ ٧٤/١.
(٥) ابن سعد ٣٣٣/٦.
(٦) أيضاً ٣٣٢/٦-٣٣٣.
(٧) أيضاً ٣٣٣/٦.

(٨) الذهبي، تذكرة الحفاظ ١١٧/١.
(٩) أيضاً ١١٧/١.
(١٠) ابن سعد ٣٢٠/٦.
(١١) ابن عبد البر ٨٧/٢.
(١٢) أبو نعيم ٣٢٠/٤.
(١٣) ابن عبد البر ١٥٣/٢.
(١٤) شوقي ضيف، المدارس النحوية، ط. الثالثة، القاهرة١٩٧٦) ص١١.
(١٥) مقدمة الأستاذ أوتوبر تزل لكتاب أبي عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع،(اسطنبول ١٩٣٠) ص ج.

القراءة تثير من مسائل اللغة مالا قبل لجميع الناس به يومئذ)[١]. تلك الأمور وسواها والتي لا مجال للحديث عنها الآن، أدت إلى ازدهار دراسات الأدب العربي.

يبدو أن الاهتمام بدراسة النحو في الكوفة كان الأسبق من غيره من فنون الأدب العربي، فقد اتجهت طائفة من القراء في الكوفة (إلى تصحيح متن القرآن عن طريق الرواية...)[٢]. ويشير المرحوم المخرومي في دراسته القيمة عن مدرسة الكوفة فيذكر أن (هذه المدرسة تقوم على شيوخ حفظوا القرآن، ورووا قراءاته عمن عاصروه من الصحابة ولازموه، وأخذوا يلقنون تلاميذهم والمقبلين على معرفة القراءات وما رووه هم عن الصحابة الذين رووا قراءة النبي.. أو أقرهم النبي على قراءاتهم، وتخصصوا بهذا الجانب من العمل الإقرائي..)[٣].

وقد ظهر من أصحاب عبد الله بن مسعود من كان مهتماً بالنحو، فكان زر بن حبيش (أعرب الناس، وكان عبد الله[ابن مسعود] يسأله عن العربية..)[٤]. وكان من قراء الكوفة من كان مهتماً بالدراسات النحوية ومن أولئك الأعمش، وعاصم بن أبي النجود الذي كان (من أعلم أهل الكوفة بالنحو...) وما سمع أنه يلحن[٥]. ويصدق القول على قارئ الكوفة المتأخر نسبياً علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٠هـ) الذي وصف بكونه أعلم الناس بالنحو والعربية، وكان الناس يستمعون إلى قراءته (وينقطون مصاحفهم على قراءته)[٦]. واشتهر عامر الشعبي بالنحو وكان (عربياً فصيحاً)[٧]. وقد أحل النحو المقام الأول وكان يقول (النحو في العلم كالملح في الطعام)[٨] (وكان أهل الكوفة كلهم يأخذون عن أهل البصرة)[٩].

والظاهر أن اهتمام أهل الكوفة بالأدب العربي كان متميزاً (فكان الكوفيون بصيرين بأشعار العرب ومطلعين عليها، وكان الشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة...)[١٠]. ويرى بلاشير أنه منذ حوالي ٤٠هـ وهو الوقت الذي ظهرت فيه دراسة الأدب بالبصرة (ظهر في التاريخ ذاته جيل من الشعراء ولدوا في تلك المدينة[الكوفة] من أبوين أصلهما من شبه الجزيرة العربية...)[١١]. كما ظهرت في تلك المدينة مجموعة من الشعراء، أمثال زر بن حبيش الذي نسبت إليه بعض الأبيات الشعرية ذات الطابع الزهدي. واشتهر من أهل الكوفة في النقد الأدبي عامر الشعبي الذي كان راوية للشعر، وقيل إنه كان شاعراً وناقداً لشعر العرب القديم والمعاصر. وكان الشعبي أثيراً لدى الخليفة عبد الملك بن مروان الذي كان يسأله كثيراً عن الشعر. وقد أعجب به الخليفة وقال له مرة: (يا شعبي إنك لكنف علم)[١٢]. وكانت له مجادلات في الشعر والنقد مع أشهر شعراء عصره وهو الأخطل[١٣].

الكوفيون والدراسات التاريخية:

الحق أننا لا نستطيع أن نميز بين مدرسة تاريخية للكوفة وأخرى للبصرة، فكلا المدرستين تمثلان المدرسة العراقية التي نشأت تحت تأثير ظروف العراق الجغرافية والسياسية والحضارية. وما أضيف إليها من تأثيرات قبائلية وإسلامية بعد حركات التحرير. وتلك مائل لن نتطرق إليها فقد درسها علماء أفاضل وأسهبوا فيها[١٤].

إن دور كاتب هذه السطور هو التفتيش عن نتاجات الرواد الأوائل من مؤرخي الكوفة وإيضاح مدى مساهماتهم في التدوين التاريخي العربي، ولكن ذلك يفرض على الباحث أن يشير سريعاً إلى أن الكتابة التاريخية في العراق وغيره مرت بثلاثة أطوار، الطور الأول: هو طور الرواية الشفهية المتناقلة على أفواه الناس من رواة وغيرهم، والطور الثاني: هو طور التدوين لمساعدة الذاكرة وليس لغرض تاريخي علمي، أما الطور الثالث: فهو التدوين لغرض علمي تاريخي تستقصى فيه الأخبار، وتوضح فيه المناهج ويبحث عن طبيعة الرواة ومدى وثوق مروياتهم، وما إلى ذلك مما تتطلبه الصناعة التاريخية. وغرض الكاتب، كما أشرت، عرض مجهودات رواة الطور الأول وما له علاقة بالطور الثاني، ذلك أن الطور الثالث وما ظهر فيه من مؤلفات، ومن أعلام ومن مناهج إنما أنضج في القرن الثالث على الأكثر، وهو خارج عن نطاق هذه الدراسة.

يبدو أن الدراسات التاريخية في الكوفة كانت أسبق في ظهورها من البصرة. فقد رويت عن شيخ المدرسة الأول (عبد

(١) الحلواني، محمد خير، المفصل في تاريخ النحو العربي، ج١(بيروت ١٩٧٩) ص١١.
(٢) المخرومي، مدرسة الكوفة، ص٢٠.
(٣) أيضاً، ص٢٢.
(٤) ابن سعد ١٠٥/٦.
(٥) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص٧٠.
(٦) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣١٤/٧.
(٧) البسوي ٣٠٦/٢.
(٨) ابن عبد البر ٢٠٦/٢.
(٩) نخبة من المؤرخين العراقيين، العراق في التاريخ (بغداد ١٩٨٣) ص٣٠٩.
(١٠) أيضاً ص٣٠٨.
(١١) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ج٣، ترجمة د. إبراهيم الكيلاني (دمشق ١٩٧٤) ص٧١.
(١٢) ابن بدران ١٤٧/٧.
(١٣) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني ج٨، بيروت ١٩٥٥) ص١٦٢، ج٩، ص٣٤١-٤٦، ج٢٠، ص٣١٤-١٦.
(١٤) أمثال الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور شاكر مصطفى والدكتور عبد الجبار ناجي.

الله بن مسعود) مرويات كانت تتعلق بأحداث التاريخ الأولى[١] وكانت لتلميذه (مسروق بن الأجدع) بعض من المرويات التاريخية، كما رويت بعض الأخبار عن (زر بن حبيش)[٢]. وكان لبعض أصحاب الإمام علي﵇ وتلاميذه الدور المميز والواضح في رواية الأحداث التاريخية، ومن أولئك على سبيل المثال (الأصبغ بن نباتة) الذي روى عن علي كتابه إلى مالك الأشتر، ومن أصحاب علي الذين رووا عنه أيضاً (أبو حمزة الثمالي) و(جابر الجعفي) و(سليم بن قيس الكوفي الهلالي)[٣]. وعن الأخير يذكر ابن النديم أن له كتاباً في التاريخ، رواه عنه (أبان بن أبي عياش لم يروه عنه غيره)[٤]. وكان عبيد الله بن أبي رافع كاتب الإمام علي قد ألف كتاباً أسماه (تسمية من شهد مع أمير المؤمنين الجمل وصفين والنهروان من الصحابة(رض»[٥]. ويقال إنه أول من ألف في المغازي والسير والرجال في الإسلام[٦]. وكان زياد والي الكوفة قد كتب في الأنساب. وقد رويت بعض الأخبار التاريخية عن سعيد بن جبير وعبد الرحمن بن أبي ليلى[٧]. وكانت مساهمات عامر الشعبي رائدة في مجال الدراسات التاريخية، فقد شهد الرجل أحداث الكوفة وساهم فيها، وروى عن بعض مشاهيرها مباشرة وبشكل غير مباشر، وقد أطلع على بعض الوثائق وقد روى له بعض المؤرخين كالبلاذري والطبري[٨].

هذا وقد أورد لنا الدكتور شاكر مصطفى أسماء بعض رواة الكوفة، ومنهم (عطية بن الحارث الهمداني) الذي اعتبره من كبار رواة الكوفة ومفسريها، وقد أخذ عن الشعبي و(محذم بن سليمان بن ذكوان) الذي كان كاتباً ليوسف بن عمر والي الكوفة، وقد سمح له يوسف بالإطلاع على بعض الوثائق. وكان لهذا الرجل اهتماماته الخاصة بأخبار الفتوح، وكذلك التنظيمات الإدارية والمالية[٩].

هذا ولابد من الإشارة أخيراً إلى جهود (عوانة بن الحكم) المتوفى سنة١٤٧هـ وهو كما يقول ابن النديم: من علماء الكوفيين رواية للأخبار عالماً بالشعر والنسب وكان فصيحاً[١٠].

وقد تحدث عن مجهوداته في الكتابة التاريخية الدكتور حسين نصار[١١].

تلك نبذة مختصرة عن أوائل مؤرخي الكوفة الذين كان لهم دورهم في رفد التاريخ العربي بالمرويات التي وجدت صداها في مؤلفات كبار المؤرخين العرب.

* * *

(١) ابن سعد ١٦/٦، ابن حجر، الإصابة ٢٧٨/٢، الأصفهاني ٣٦/٣.

(٢) ابن حجر، الإصابة ٥٠٩/٣، وكان يروي عن أم رومان وهي والدة السيدة عائشة، انظر البخاري، التاريخ الصغير، (القاهرة ١٩٧٧) ص٣٨.

(٣) الطوسي، محمد بن الحسن، الفهرست، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم النجف ١٩٦١ ص٦٢، ٦٦، ٧٠.

(٤) الفهرست ص٣٢١.

(٥) الطوسي، ص١٣٣.

(٦) شاكر مصطفى عن الذريعة ١٨١/٤.

(٧) ابن حجر، الإصابة ٣٧٨/٣، ابن سعد ٨٢/٣، الطبرسي ٤٧٧/٤.

(٨) كتب عنه كاتب هذه السطور دراسة لا تزال مخطوطة استعرض فيها جهوده بشكل واف.

(٩) التاريخ العربي والمؤرخون، ج١(بيروت ١٩٧٩) ص١٧٥.

(١٠) ابن النديم، الفهرست، ص١٤٠.

(١١) نشأة التدوين التاريخي عند العرب،(القاهرة، بدون تاريخ) ص٦٠-٦٣.